

موقع مصطفى نور الدين عطية



نحو رؤية قومية لكتابة التاريخ العربي .. مصطفى نور الدين

مجلة الحوار الاسبوعية، العدد ٧، ٢٣ اكتوبر - ١٣ نوفمبر ١٩٨٧، باريس، ص ص ٣٥ - ٤٦

الجمعة 4 آذار (مارس) 2016, بقلم مصطفى نور الدين عطية

نحو رؤية قومية لكتابة

التاريخ العربي

بقلم : مصطفى نور الدين عطية

ما الذي دفع المؤرخين العرب للبحث عن رؤية قومية في كتابة تاريخ الوطن العربي ؟ آلاف من الكتب سطرها المؤرخون في كل قطر ، كما ان العديد من المستشرقين كتبوا بدورهم الكثير . قديما وحديثا عكف الانسان على توثيق الوقائع والحوادث والحروب والمجاعات والصراعات وتوالى الحكام تحت كل اسم وفي كل زمان . فما الذي يشوب هذا التاريخ المدون ويدعو لمراجعته من منطلق بعينه ؟ ولماذا هذا المنطلق بالذات أي البعد القومي ؟ وهل تعني إعادة كتابة التاريخ من

منطلق قومي أنه لم يسبق أن كُتِبَ بدءً من هذا الفهم الشمولي ؟ ام انه كتب بشكل تجزيئي وقطري ؟ وماذا يضير أن يكتب التاريخ القطري ؟ . وألا تعتبر كتابته قومياً محواً للسمات الخاصة بكل قطر ؟ ألا تشكل فرضا أيديولوجيا على التاريخ ؟

تلك هي بعض الأسئلة التي طرحت طوال جلسات ندوة « نحو رؤية قومية لكتابة التاريخ العربي التي عقدت في طرابلس عاصمة الجماهيرية العربية الليبية بدعوة من المجلس القومي للثقافة العربية بالتعاون مع جامعة ناصر في الفترة من ١٠ إلى ١٤ اكتوبر - تشرين الأول ١٩٨٧ ، وضمت ابرز المؤرخين والمفكرين العرب ، والتي تطرحها بدورها « الحوار » أمام قرائها .



تركزت البحوث والدراسات التي قدمت في هذه الندوة حول عدد من المحاور المركزية يمكننا توزيعها كما يلي :

- التاريخ العربي بين التحيز والتشويه .
- دور الاستشراق بين الادانة .. والريبة

- التاريخ القديم : تجزئة في التاريخ أم في كتابته ؟
- التجزئة وفشل النمذجة في التاريخ الحديث
- تعميق القطرية .. تكريس التجزئة
- الوعي القومي .. من يخشاه ؟
- من يكتب التاريخ .. ولماذا نكتبه ؟

التاريخ العربي بين التحيز والتشويه

ان التاريخ العربي ، سواء على المستوى القطري أو القومي ، قد كتبه العرب ، من المسلمين أو غير المسلمين أو كتبه الاجانب . وايا كان كاتبه فإن الذي لا شك فيه أن كاتبه كان منحازاً بصورة أو باخرى .. وهذا التحيز لا ينطبق فقط على التاريخ بل كذلك على كافة العلوم الاجتماعية ... ولكن قد لا تقف الكتابة عند حدود التحيز وانما قد تتعداها إلى الرؤية القاصرة في أفضل الأحوال والمحرفة لهذا التاريخ في أسوأ الأحوال .

فالتاريخ العربي في العصر الوسيط ، كما يقول د . ابراهيم حركات ، دونّه مسلمون وبينهم عرب وغيرهم ، ولكن غلبت عليه الروح الدينية أو المذهبية ، أي أنه نادراً ما يكون محايداً أو مجرداً . وهذا يعني أننا لا نرى التاريخ إلا من زاوية واحدة فالمسعودي يكتب بروح المتشيّع ، والحافظ الذهبي بروح السني .. أما الجماعات التي كانت تتصارع داخل المجتمع العربي والاسلامي فلم يكن لها نظرة فكرية للاحداث ومسيرتها ولا لمدلول العمل الاسلامي والعقائدي ، ومن هنا فان إعدام ما دوّنه الخوارج أو القرامطة وغيرهم من كتاب ومنظري الجماعات المعارضة ، أمر مؤسف من الوجهة العلمية ..

ويضيف د . حركات بان ذلك يقود إلى تهميش الجماعات الاسلامية في المدوّنات العربية عموما ، فمعظم الكتابات تقتصر على تاريخ الانظمة الحاكمة ومن منظور سياسي فقط قد تسايره أحيانا الاحداث الاقتصادية والمالية واشارات خاطفة عن بعض المعالم الحضارية .

واذا كان التحيز في كتابة التاريخ يكشف عن الروح المذهبية التي تحاول طمس ما عداها ، فإن ذلك أيضا يظهر عند المؤرخين حسب انتمائهم الاقليمي . وتأتي دراسة د . أمين توفيق الطيبي لتعالج هذه النقطة المكملة . فيكشف في

دراسته عن العصر الوسيط بأن الصراعات داخل الوطن العربي أدت أيضا إلى التأثير المباشر في كتابة التاريخ من قبل المؤرخين الذين عاشوا في قلب هذه الصراعات ودونوها .. مثلما فعل المؤرخ الاندلسي ابن حيان القرطبي المتوفي عام ١٠٧٦ م (٤٦٩ هـ) .. فلم يكن هذا المؤرخ محايداً في موقفه من الاحداث التي تدور ، يدونها دون اتخاذ موقف منها ، وإنما كان يعلن موقفه ضد تعدد الخلافات ويعلن تأييده لخلافة « الناصر » في قرطبة وكان يرى في الامويين امتدادا لخلافة الراشدين ويقول بأن دولة الجماعة لم تعد إلى الاندلس إلا بقيام عبد الرحمن الناصر وتوحيده البلاد ..



وإذا كانت كتابة التاريخ من قبل المؤرخين العرب أو المسلمين اصطبغت بالانحياز إلى مذهب بعينه أو قبيلة بعينها رأى فيها المؤرخ الأحق بخلافة المسلمين فإن ذلك يعني منطقيا ذكر محاسن من يفضلهم والاساءة إلى من يتناقض معهم .. وهذه النظرة الاحادية الجانب في كتابة التاريخ اعطت دون شك كتابة مبتورة وتجزيئية لتاريخ العالم العربي صراحة أو ضمناً .

ولكن هناك كتابة ثانية للتاريخ قام بها فريق آخر وكانت النوايا منها متعددة بدورها .. وهذا الفريق هو الذي يطلق عليه اسم « الاستشراق » .. والمستشرقون في معظمهم من خارج العالم العربي درسوا لغته واللغات الاخرى المجاورة له في المنطقة . وانشغلوا بهموم كثيرة منها مثلا : من هم العرب ؟ وقد تلوح الاجابة بسيطة وجاهزة : هم الشعب الذي حمل القرآن الى الشعوب الاخرى .

ولاننا بصدد « نظرة قومية لكتابة التاريخ العربي » فان التحديد المكاني للموقع

والموضع الذي دار فيه هذا التاريخ يعتبر من المسائل الاولية .

يتتبع د . محمد التازي مسعود في دراسته التي قدمها للندوة : « المؤرخون الاجانب ونظرتهم إلى التاريخ العربي » ما قاله بعض المستشرقين في هذا الصدد .. ولكن د . مسعود يقول اولا بان عرب الجزيرة قد سبقهم اجيال وجموع وقبائل إلى مساكن واراض مجاورة للجزيرة ، وكانت لغاتهم عبارة عن لهجات متقاربة جداً أو متشابهة إلى درجة امكانية معرفة الرابط اللغوي بين هذه الجماعات بسهولة تامة . وارجاعه إلى وحدة ثقافية عتيقة « ان لم تكن وحدة عرقية سلالية » .

وعلى هذا الاساس فإن تاريخ العرب القديم ليس تاريخ شبه الجزيرة فحسب ، وانما العرب هم اصحاب العراق القديم والشام القديم ايضا .. فاستقراء الدول والانظمة والدساتير واسماء الاشخاص والمواقع والالهة تؤكد ان تاريخ العرب القديم يبدأ ويسير مطردا في كل من العراق والشام وفي مواطن الخصب بشبه الجزيرة ، أي في اليمنات كلها « اي اليمن السياسي » .

بقول آخر فان تاريخ العرب القديم هو تاريخ الأكاديين والآشوريين والبابليين ، والاموريين والفينيقيين والانباط والتدمريين والقتبانيين والمعينيين والاسانيين والسبئيين والمناذرة والغساسنة .. كل هذا بالطبع مع تاريخ نجد والحجاز وغيرهما من جهات شبه الجزيرة ..

وان كان ذلك هو ما يمثل التاريخ العربي القديم ، فإن معرفة الاقدمين به لم تكن إلا كالاصداء المشوهة والحكايات والاساطير ، بل واحيانا كنوع من الخرافات .

دور الاستشراق بين الادانة .. والريبة :

وهنا يأتي دور المستشرقين الذين انكبوا يبحثون ويناقشون ويقابلون بين الاخبار والمرويات بجانب التنقيب والحفر وذلك من اجل كتابة تاريخ تلك المنطقة . واذا كانوا قد نهجوا السبل العلمية لفك رموز هذا التاريخ العتيق ، فإن البعض منهم لم يخل ما وضعه من كتب ودراسات من البعد عن الصواب عمداً أو خطأ .

فبعض المستشرقين تعصب ضد العرب والاسلام ، واتهموا الاسلام بالتعصب

ضد الجاهلية للقضاء على اخبارها .. وبعضهم بدأ دراسته اعتماداً على ما اسموه « علم الاثار التوراتي » .. وغيرهم كانت دراسته تمهيداً للتوسع الاوربي الاستعماري في ارض العرب .. وفي مقدمة هؤلاء بعض اليهود الاوربيين الذين عملوا في الحفريات تركيزاً « للنظرية الصهيونية » التي كانت تعمل في الحقل الاثري لايجاد الحجة التاريخية المادية لدعوتهم .

ولكن جهود المستشرقين لم تؤد برغم تنوعها وكثرتها إلى توحيد وجهة نظرهم في العديد من القضايا ، بل جذرت الاختلافات فيما بينهم في قضايا اساسية . فعلى سبيل المثال بعدما اطلق شلتزر المستشرق النمساوي عام ١٨٧١ كلمة « سامي » على شعوب الهلال الخصيب وشبه الجزيرة ، جاءت دراسات اخرى لتقول بان هذه السمة تعتبر وصفا للغات وللهجات الاقوام بالمنطقة .. ولكن المسألة لم تقف عند هذا ..

فبعض المستشرقين قال ان مهد الشعوب التي تكلمت هذه اللغة وجد بالهضبة الاسيوية بين نهري سيحون وجيحون .. وقال غيرهم بان هذه الشعوب كانت في « بابل » أو في شمال العراق .. بينما ذهب البعض إلى ان جزيرة العرب ونجد على وجه الخصوص هي موطن الساميين الاولين ، ومنها هاجروا إلى ما حولها من المناطق .. ولم يقف الخلاف على هذه المنطقة الممتدة طبيعيا وجغرافيا في منطقة متجاورة .. فلقد ذهب بعض المستشرقين إلى ان المهد الاصلي للساميين هو افريقيا .. بل وغيرهم يقول أرمينية !!

هذا الاختلاف بين المستشرقين يبين من ناحية تعقد مسألة دراسة التاريخ العربي القديم ومن ناحية اخرى يعكس نوايا بعض المستشرقين التي اختلف الذين شاركوا في الندوة على اتخاذ موقف أو رأي واحد منها .

ولكن الآراء انقسمت أو تمحورت حول اعتبار دراسات المستشرقين ذات

ابعاد متعددة . فالدكتور بنسالم حميش يدعو إلى التخلص من « التقييمات الاحادية التي تربط الاستشراق بالاستعمار بشكل عفوي » ويقول بضرورة وضع تمييزات اولية وضرورية بخصوص المستشرقين على اساسها نفرق بين المستشرقين الذين واكبوا المرحلة الاستعمارية الاستيطانية وكانت اعمال بعضهم موجهة لمعرفة البلدان موضع الاسترشاد الاستعماري لا لاحتلال الاراضي فحسب وانما لغزو العقول ايضا . ففرق بين هؤلاء وبين المستشرقين الذين واكبوا مرحلة الاستقلالات . وان كان بين هؤلاء من ظلت تساورهم احلام الهيمنة باسم أو تحت دعوى التطور المشترك والمدنية العالمية ، فإن هناك بعض آخر تمتع بحساسية ووعي بخصوصية الثقافات وحتمية الاستقلالية السياسية والاقتصادية . واصبح الاستشراق لدى هذا الفريق الاخير يعني الانفتاح على الآخر لا لاستعباده واستغلاله وانما لفهمه والتعايش السلمي معه .

وبالرغم من هذا التقسيم أو التبويب للمستشرقين مع أو ضد العالم العربي فان د . حميش طرح تساؤلا هاما وهو : بالرغم من وجوه القطيعة بين الاستشراق التقليدي والاستشراق المجدد ، هل هناك من علاقات ايجابية معلنة أو تواطؤية خفية تقوم بينهما ؟ من لديه الاجابة القاطعة ؟ البعض يريد ان يشطب على كل ما اسهموا به والتشكيك في مقاصدهم والبعض الاخر يرى ان المستشرقين قد قاموا بدراسة المجتمعات العربية في الوقت الذي « كنا فيه نيام » ، وان لهم اذن فضل لا يجب انكاره وان دورنا ان نغربل نتاجهم ونأخذ منه ما هو صحيح وانحاء ما هو مُغرض ..

ولكن لماذا كل هذا الشك بل والوجل مما يكتبه معظم المستشرقين ؟ اليس من بينهم من يتمتع برغم كل شيء بالنزاهة العلمية والموضوعية ؟

ويأتي رد د . مصطفى المسلاتي في دراسة عن « الاتجاهات الحديثة في الاستشراق » حاسما ، قاطعاً إذ يقول « الباحث المتعمق سيكشف « الصدمة » التي ستواجهه عندما يغرق في بحور الاطراء والمديح الذي يغدقه بعض المستشرقين على تراث العرب وحضارة المسلمين .. فهذا لا يعدو ان يكون مظهرا خادعا وما بناه بمنهجية سوف يهدمه فورا « ويسقطه لبنة لبنة » . وذلك لان « طبقة من المستشرقين اتجهوا في دراساتهم لتراث العرب والاسلام كدين إلى منهج التشكيك والبحث عن مبررات تخدم اهدافهم ونواياهم وخلفياتهم الثقافية المسبقة .. » .

ولكن الامر لا يقف عند هذا الحد . فالاستاذ المسلاتي يضيف بان الاستشراق في النصف الاخير من هذا القرن يقوم به ايضاً بعض المفكرين من الشرق العر

في ... الاخير من هذا القرن يقوم به ايضا بعض المفكرين من الشرق العربي و « قاموا بالمهمة ذاتها التي قام بها المستشرقون ، فعصب الاستشراق الآن سياسيا بالدرجة الاولى الى جانب كونه ثقافيا » .

ويقول د . المسلاتي بانه اصبح هناك من المستشرقين السياسيين من يعملون كمستشارين « في وزارات الخارجية الاوروبية والامريكية حتى وصل الاستشراق حديثا الى زمن المشاريع السياسية » . فالاستشراق الحديث غير ادواته واساليبه واصبح يدخل فيه ايضا الانثربولوجيا والعلوم الاجتماعية بشكل عام التي تركز دراساتها على بلدان « العالم الثالث » وذلك بقصد فرض السيطرة عليها من قبل الولايات المتحدة خاصة منذ ما بعد الحرب العالمية الثانية وسقوط الامبراطوريات الاستعمارية القديمة .

وإذا كان التاريخ العربي كتب ويكتب من قبل المستشرقين « بروح معادية » جهراً أو بصورة مضمرة . فكيف كتب العرب تاريخهم القديم والحديث او المعاصر ؟ هل تحلت كتاباتهم بالموضوعية والعلمية وعدم الانحياز الى السلطة أي سلطة ، خلافة بعينها أو فرقة من الفرق أو مذهب من المذاهب ام ان المؤرخين كتبوا هذا التاريخ بعين الانسان المفكر المسييس الذي يختار معسكره مسبقا ؟ لقد سبق ان تكلمنا عن ذلك ونعود اليه مرة اخرى للمقارنة .

يقدم د . ابراهيم بيضون اجابة على بعض من هذه الاسئلة في مناقشته « لمسائل المنهج في الكتابة التاريخية العربية حتى نهاية القرن الثالث الهجري » .. فيتتبع تطور الوعي التاريخي عند العرب المسلمين الذي كانت أحد أهم عناصره تدوين القرآن ثم الحديث النبوي .. وان كان لهذا التدوين خصوصية لتعلقه بالدين ، فإن الطابع الذي تم به تدوين الحديث النبوي فرض نفسه لفترة طويلة كاسلوب لكتابة التاريخ ، حوادثه وحروبه وصراعاته .. وغير ذلك أي الاعتماد على الرواية والاسناد .

ولكن هنا حدث تطور في طريقة حفظ التاريخ اذ انتقل من مرحلة الحفظ في الذاكرة الى مرحلة التدوين . وبدأت المرحلة الاساسية للتدوين بعد نحو قرن ونصف من الهجرة . ومن بين المؤرخين العرب يذكر د . بيضون « عوانة بن الحكم الكليب » الذي كان يوصف بانه « أموي الهوى ، او بالتحديد عثماني النزعة ، مما جعله اكثر اهتماما باخبار الامويين حلفاء قومه بني كلب ، واكثر تعاطفا معهم » . بينما نجد ان « ابي مخنف الذي ولد وعاش بالكوفة حيث نشأ



وتأثر بالاجواء المعادية للدولة الاموية » .. وكذلك كتب المؤرخ نصر بن مزاحم المنقري الذي تتبع بصورة خاصة المعارضة ، لا سيما وقعتي الجمل وصفين وكربلاء ، ودون ان تخلو كتاباته من مسحة معادية للدولة الاموية .. وهذه المعاداة للدولة الاموية نجدها ايضا لدى المدرسة التاريخية الاخرى بالمدينة وخاصة المؤرخ محمد بن اسحق المطلبي وابو معشر السندي والواقدي ..

واذا كان علم التاريخ العربي تكوّن فعليا في القرن الثالث الهجري وذلك باستقلاله عن الحديث واعتماده على مصادر متنوعة الا ان ذلك لم يكن يعني استقلالية المؤرخ تماما عن اتخاذ موقف في تدوين التاريخ . فالمؤرخ الشهير « البلاذري » كان « قريبا من القرار السياسي في الدولة خاصة من خلال علاقته

الوثيقة باثنين من الخلفاء وهما المتوكل والمستعين وبرغم ذلك فقد كان من اوائل المؤرخين الذين اتسمت كتاباتهم بالموضوعية التي جنبته الوقوع في الصراعات السياسية ، وبالتالي التصنيف الذي قلما نجا منه مؤرخ اتهم بانه مع هذا الفريق أو ذاك » . ولعل الطبري يفوقه في هذه الموضوعية وذلك لابتعاده كلية عن كل علاقة مع السلطة ، وان كانت تلك الموضوعية قد تدفع الى ما يمكن وصفه « بالموضوعية السلبية » حسب تعبير د . بيضون . وما يعتبره الطبري كنوع من « الحياد ازاء الرواية » .. وان كان الطبري عامة مراعيا في كتاباته « لمنطق السلطة ، ومسوغاً لها شرعيتها المستمرة خارج الشبهة والنقد » .

ويقول د . بيضون اننا نجد من بين المؤرخين من لعب وظائف استشارية للسلطة مثل الزهري في العهد المرواني والزبير بن بكار والبلاذري في العهد العباسي .. ويضيف بان اشكالية النظرة الدينية إلى السلطة والاحاطة الالهية للخلفاء ، فضلا عن الشرعية « المقدسة » ، المسلّم بها ، جعلت السلطة فوق النقد وان ذلك كان يربك المؤرخ ويقيد حركته حتى لا يكون عرضة للملاحقة أو للتصنيف السياسي والمذهبي ، وربما عرضة للتشكيك بايمانه وكل ما يجعله عرضة للتهمة والخطر .

التاريخ القديم : تجزئة في التاريخ ام في كتابته ؟

اذا كان الانحياز اذن هو الغالب على كتابة التاريخ بحيث تصبح « الموضوعية سلبية » و « النقد تحيز » فكيف نكتب التاريخ ؟ .. واذا ما كتب التاريخ بهذه الصورة ؟ فهل كانت هناك مغالطة ما ؟ هل كان من المفترض ان يضع المؤرخ ما يكتبه طبقا لنموذج سابق لا يخرج عنه ام ان عليه ان يكتب الماضي حسبما نقله اليه غيره من الرواة والمؤرخين بعد ان يقوم بعملية تحري للمعلومات وللمصادر .. وان يتخذ موقفا طبقا لقناعته الذاتية وليس طبقا لما يفرضه هذا الخليفة أو ذاك أو ان يُحرِّف التاريخ خوفا من العقاب والتجريم .

ولكن يظل سؤال هام لا بد من التعرض له وهو : هل أن القرون الاولى من التاريخ العربي بعد الاسلام شكلت نموذجا لدولة واحدة ام انه تجاذبت التاريخ الصراعات ؟ وهل كانت هذه الصراعات ذات جذور تاريخية تعود لما قبل ظهور الاسلام ام لا ؟ . وما الذي نشأ عن هذه الصراعات على صعيد « الوحدة العربية » ان صح التعبير في هذه العصور السحيقة ؟ طالما ان موضوعنا هو مراجعة التاريخ العربي ومحاولة النظرة اليه من « منظور قومي » ..

فهذا المنظور القومي كما طرح ويطرح يعني الوحدة التاريخية للمجتمعات العربية منذ ظهور الاسلام . وبرغم ما لحق المجتمعات العربية طوال القرون السابقة من تجزئة وخضوع لقوى خارجية فقد ظل هذا الفهم أو على الاقل ظهر حتى اوائل القرن العشرين كمناظر « لوحدة العالم الاسلامي » ولو في ظل الامبراطورية العثمانية .

ولعل من المفيد اولاً التوقف عند القرون الاولى لنرى ما كان عليه وضع الخلافة . وبهذا الشأن قدم د . محمد زنيبر دراسته « مفهوم الدولة والامة في العصر الوسيط » استناداً الى القرآن والسنة ، وفي ادراك القادة والساسة والعلماء المسلمين .. وتحوّل مفهوم الامة المثالي إلى « مجتمع واقعي » ، وظهور « الامة

العربية داخل الامة الاسلامية » .. وهو هنا برغم تقديمه لتعريفين « للامة » ، الاول يعني به « الجماعة التي يربط بينها دين ، دون اعتبارات للحدود الجغرافية والسياسية ولا الفوارق الجنسية والسلالية واللغوية » والثاني يعني « الجماعة الكبيرة بدون وصف آخر » ، الا انه يتبنى التعريف الاول فقط ، برغم قوله بان المعنى الثاني هو الذي نأخذ به اليوم حينما نستعمل كلمة Nation أي امة ؟!

ثم يناقش مسألة الربط بين مفهوم الامة والدولة . ويقول بان المسلمين الاوائل لم يستخدموا مفهوم الدولة « للدلالة على الجهاز الحاكم » وانما استعملوا الفاظا مثل « الامامة ، والخلافة ، والامارة والسلطان » . ولكنه يعلن اختلافه مع الاخرين ويقول بان « الدعوة الاسلامية كانت تقتضي في اساسها قيام الدولة » . وان « الدولة نابعة من الاسلام كمبادىء وممارسة » وان « الدولة الاسلامية نشأت عن اجتهاد عربي محض » ! وان « اتجاهها كان عالميا طبقا لاتجاه الرسالة الاسلامية » . ويتساءل د . زنيبر هل امكن الربط بدون عقبات ولا مشاكل بين مفهوم الدولة ومفهوم الامة ؟ ويجيب بانه مع انتشار الاسلام واستقرار الدولة الاموية بالشام « تبنت عددا من الطقوس والتقاليد البيزنطية » وحدثت اذن تغيرات عميقة على الدولة « وحدث انفصام بين الامة والدولة ، ولا ادل على ذلك من

انقطاع تقليد الشورى وظهور عهد الطغيان والاستبداد » ، وكان اتجاهها عربيا ولكن بعودتها « واعتمادها على الخلافات القديمة فيما بينهم الموروثة عن عهد الجاهلية » .. وحدث تحالف بين الاسرة الاموية والعرب من اجل مصالحهم وتعارض هذا الحلف مع مصالح الشعوب الاخرى التي دخلت الاسلام وكونوا بدورهم قوة اجتماعية وسياسية لا يستهان بها عملت على تكسير الحلف الحاكم » الذي اصبح مع مرور الزمان يتناقض اكثر فاكثر مع مبادىء الاسلام وتعاليمه » . فكانت الثورة عليهم بقيادة « الاسرة العباسية المنتمية لبني هاشم من ابناء عمومة النبي » .

ويقول د . زنيبر بان العصر العباسي الاول مثل « تجربة نادرة هدفت إلى تحقيق مثال الامة الاسلامية ، أي تكوين رابطة عالمية بين امم مختلفة على اساس الاخاء في الدين والمساواة في الحقوق والواجبات » . و « تمحو الفوارق العنصرية وتذيب القوميات في بوتقة واحدة » .. ويضيف « ولكن ما لبث حماس الثورة العباسية إن اخذ في الانطفاء وما لبث مفهوم الامة الاسلامية ان اخذ يصطدم بالنعرات القومية والصراع على النفوذ وما ان هلَّ القرن الثالث الهجري حتى بدأ اثر العصبيات الاقليمية يبرز في كل مكان » .. ووقع مرة اخرى الانفصال بين **الدولة والامة** .. وتحولت الخلافة العباسية إلى ثيوقراطية وتبنت النموذج الفارسي من مظاهره وتقاليده ورسومه . واحتجب الخليفة عن الرعية واعتمد على الجيش والشرطة في حكمها وضبط شؤونها . وابطل الشورى وغدت البيعة عملية شكلية ..

ودخلت الدولة طور الازمة أي الانتقال من « دار الاسلام » إلى « دار الحرب » وعبرت هذه الازمة عن نفسها في الاعتراض على شرعية الخلافة العباسية وقيام ثورات للقضاء عليها مثل « ثورة الزنج » و « ثورة القرامطة » وقيام « خلافات مناوئة » مثل الخلافة الفاطمية في مصر والخلافة الاموية في الاندلس . ثم انتشار ظاهرة الانفصال والتجزئة على الارض التي كانت تسيطر عليها « الخلافة الاسلامية الموحدة » فنشأت دولا عديدة معظمها مستقل عن الخلافة او تابع لها اسميا .. و « بدأت القوميات تطغى وتتصارع فيما بينها » .

ويرجع د . زنيبر هذه الازمة لانزلاق الخلافة « نحو الفساد » .. ولاتجاه الخلافة في مواجهة المشاكل السياسية والاجتماعية بالاعتماد على « الاقطاعية » أي على نظام « يجعل من قادة الجيش وضباطه هم المتصرفون الفعليون في الارض أي في جزء كبير من الاقتصاد في مداخيل الدولة » وهذا ما جعلها تفقد شرعيتها وحرمتها وهيبتها ، وبالتالي ان تفقد سندها الطبيعي الذي كان من **الواجب** ان يأتي من القاعدة **أي من الامة** » ؟!

ويستنتج د . زنيبر « فشل الدولة الواحدة بالمعنى الديني . كما ان اذابة سائر العصبيات والقوميات في امة واحدة تقوم على رابطة العقيدة الدينية لم تتحقق » .. و « من ثم لا يمكن تجاهل واقع القومية التي تدعمها عدة عوامل جغرافية وبشرية وثقافية » .

ويؤخذ على هذه الدراسة ميوعة المصطلحات وعدم تحددها العلمي . فربط وتعريف الامة بالدين ثم ربط الامة بالدولة هي محاولة رصد فوقي لحركة التاريخ

تغفل كل العوامل الاجتماعية والاقتصادية بما يتضمنه ذلك من مصالح قبلية وعشائرية حركت التحولات التاريخية داخل المجتمعات العربية في ذلك الوقت خاصة فيما يتعلق بالخلافة .. وهذا الخلط يظهر ايضا فيما يتعلق بمصطلح القومية الذي يستخدمه د . زنيبر دون أي تحديد لمفهومه . فما هو تعريف هذا المصطلح مقابل مصطلح الامة الذي يعني به الجماعة الانسانية التي تربطها عقيدة واحدة .

وما الفرق بين تعريف كلمة جماعة COMMUNAUTÉ وكلمة الامة NATION ، مثلما لاحظ ذلك جورج طرابيشي في تعقيبه على دراسة د . زنيبر .

وخطورة تبني د . زنيبر للاصطلاحات دون تعريف تقود الى تقسيم الشعب الواحد الى امم على اساس الدين فقط فيضيف بذلك تجزئة اخرى بجانب التجزئة القبلية والعصبية والعشائرية مع ما يحمله ذلك من تفتيت للمجتمع الواحد الى عدد غير محدود من الامم .. يضاف لذلك ان استخدامه لكلمة قومية يظل قاصراً عن استيعاب المعنى الخاص لهذه الكلمة التي ترتبط بظهور البورجوازية وتوحيد السوق الرأسمالي داخل المجتمع الواحد ... الى اخره .

ولو تجاوزنا هذه الملاحظات ورجعنا الى صلب القضية لوجدنا ان هذه الاوضاع في البلاد العربية أو التي كانت تحت ظل الخلافات الاسلامية كانت تموج بالحركة والتحول وكان من الطبيعي ان تأتي الكتابات التاريخية معبرة بشكل أواخر عن هذا الاضطراب . بحيث يصبح من غير المضر الاقرار بوجود وحدات سياسية متفرقة ومتنازعة كتعبير عن مصالح متباينة لها جذورها التاريخية ولها جوانبها الخاصة ايضا سواء على الصعيد الاقتصادي أو الاقليمي وبالطبع على الصعيد السياسي ايضا .. وهذه المشكلة القديمة ما زالت قائمة اليوم

في كتابة التاريخ

في كتابة التاريخ ، ولكن المهم ان نفرق في هذه الكتابة بين موضوعية التحليل ومنطقية الانحياز من جهة وبين محاولات التشويه والمغالطة التاريخية من جهة اخرى . فالاتجاه الاول قام به العرب والثاني قام به المستشرق الغربي .

التجزئة وفشل النمذجة في التاريخ الحديث :

وتأتي الدراسة التي قدمها د . مسعود ضاهر « حول مشكلات التاريخ لولادة الدولة في المشرق العربي المعاصر » لتناول بعض من هذه العناصر . وتعتبر كنوع من دراسة « الحالة » المحدودة التي يختلف حولها الكتاب برغم معاصرتهم لها .. والاسئلة التي يتعرض لها د . ضاهر جوهرية . هل التجزئة السياسية مرتبطة بالاستعمار ؟ هل كانت اوضاع الشرق العربي ، بالتحديد سورية ولبنان ، الاقتصادية والاجتماعية والسياسية تؤهل للوحدة ؟ أو بمعنى آخر ما هو دور العوامل الداخلية والخارجية في سيرورة التاريخ ؟ هل انقذ الانتداب الفرنسي والانجليزي للشرق العربي سكانه من المجاعة والحروب واعاد له النظام والامن في العشرينات من هذا القرن ؟ وهل رفض لبنان الوحدة مع الدويلات السورية ؟ ام ان القوى الاستعمارية الانكلوفرنسية انجزت مشروع التجزئة وتفكيك الوطن العربي طوال سنوات قبل اندلاع الحرب العالمية الاولى عبر اتفاقيات « سايكس ـ بيكو » و « وعد بلفور » و « لويد جورج ـ كليمنصو » و « سان ريمو » وان تجزئة سورية كانت نهاية لمرحلة طويلة من تجزئة الوطن العربي وليس بداية لها ؟

والى اي مدى يمكن تحميل التيار أو القوى القومية العربية في تلك المرحلة المسؤولية المباشرة في اقامة دويلات التجزئة في المشرق العربي كنتاج لقصور نظرتهم عن استقطاب الجماهير الشعبية ولاستعدادهم الدائم للمساومة مع المستعمرين ؟ وماذا كانت حدود دور القيادات الانتهازية في سوريا ولبنان الموالية للانتداب الفرنسي عمليا والمتعارضة معه لفظيا في ولادة الدولة اللبنانية الطائفية وتغيب الوجه الطبقي بل وتغليب هذا الوجه الطائفي على الطابع القومي ؟

كل تلك الاسئلة جاءت الاجابة عليها متعارضة ومتناقضة من قبل المؤرخين وذلك حسبما يقول د . ضاهر ، لاعتماد بعض المؤرخين على الوثائق الفرنسية او الاجنبية دون الإهتمام بالوثائق الداخلية التي تعطي الوجه الاخر من

الصورة .. وكذلك لان هذه الكتابات تعكس ازمة الكتابة التاريخية العربية المعاصرة التي تعتمد العمل الفردي ، وان المؤرخين لم يشكلوا تيارات تاريخية تجمع في تنوعها واتجاهاتها الفكرية والسياسية الغالبية من المؤرخين العرب .

وان كان كل ذلك صحيحا فإن هناك مشكلة اخرى حالت دون تشكل الدولة في الوطن العربي ، ويبلور هذه القضية د . سهيل القش في دراسة عن « فشل النمذجة في بناء الدولة في الوطن العربي » مع اتخاذ لبنان كمثال تفصيلي لهذا الفشل . وهنا لا يتعلق الامر بالتأريخ ولكن بصنع التاريخ . أي محاولة الانسان بناء النموذج الذي يتوهم انه الامثل لحفظ التوازن الداخلي للمجتمع الذي يشتمل على قوى متصارعة كوضع طبيعي أو كنتاج منطقي لحركة التاريخ .

ونتوقف عند بعض النقاط الاساسية التي طرحها د . القش في دراسته وخاصة اولا عند تساؤله عن اسباب فشل التجارب الوحدوية العربية على امتداد التاريخ



الحديث كما سعت اليها الاحزاب القومية : الناصرية ، البعث ، حركة القوميين العرب ، الحزب السوري القومي الاجتماعي ، المقاومة الفلسطينية .. الخ » وهو يقول بان قوى التحرر في الوطن العربي ناضلت منذ بداية القرن في سبيل بناء دولة عربية موحدة ولكنه وجد نفسه مجزأ إلى ٢٢ دولة منذ معاهدة سايكس - بيكو .. وان كانت تلك التجزئة لها جذورها التاريخية في البنى القديمة للعالم العربي منذ بدء انهيار الامبراطورية العثمانية .

ويقسم د . القش الحلول التي عرفها العالم العربي في تجاربه الحديثة للخروج من مأزقه البنيوي ، الى قسمين : حلول طرحتها الدول العربية وحلول طرحتها حركات سياسية خارج السلطة .

اما حلول الدول والمرتبطة بطبيعة كل دولة فهي تنحصر في : الدولة الكيانية التيوقراطية (بعض الدول الملكية ..) والدولة الكيانية الليبرالية (تونس والكويت ولبنان قبل الحرب الاهلية) .. والنموذج الاشتراكي (الدول القومية الاشتراكية ، مصر الناصرية وسوريا والعراق والجزائر والجماهيرية الليبية) .. واخيرا الدولة الماركسية (اليمن الجنوبي) .

ثم هناك ايضا الحلول التي تقدمها حركات سياسية خارج السلطة ويلخصها د . القش في الحلول الماركسية بكافة تجاربها واشكالها .. والحلول الاسلامية واخيرا الحلول أو التصورات الجزئية التي تطرحها حركات الجماهير أو انتفاضات أو اشكال مقاومة كتلك التي برزت مع المقاومة الوطنية اللبنانية .

ويقول د . القش ان تلاشي الدولة الطائفية اللبنانية له دلالة تطال النموذج « الغربي - الليبرالي » .. والتي هي اعادة انتاج بنيتها التقليدية العشائرية - العائلية مع غطاء ايديولوجي من النصوص الدستورية المستوحاة من الدساتير الاوروبية الصقت بواقع مغاير للواقع الاوربي ولا يتطور في نفس السياق .

واذا كان النموذج الذي قدمه د . سهيل القش يعكس التمزق على مستوى



الدولة الواحدة والذي تتعرض له دول اخرى أو يتهددها التعرض له في المستقبل فإن ذلك يطرح علامة استفهام حول دور الدولة القطرية في ترسيخ القطرية والتاريخ القطري . أي سيادة وضع نقيض لما تأمل الندوة الساعية لايجاد رؤية قومية لكتابة التاريخ العربي .

تعميق القطرية .. تكريس التجزئة

وهنا من الممكن التعرض للدراسة التي قدمها الاستاذ جورج طرابيشي عن « الدولة القطرية والتاريخ القومي » .. فهي تبين الكيفية التي يتم بها تدريس التاريخ في المدارس بالبلدان العربية . والمسألة هنا تعني حقيقة : كيف يكتب هذا التاريخ العربي في كل قطر ؟ والاجابة المباشرة انه لا يكتب من منظور قومي .

ويقول الاستاذ طرابيشي ان الدولة « القطرية التي توهمت النظرية القومية التقليدية ان حدودها وهمية أو « كرتونية » وانها مصطنعة من فعل الاستعمار وانها ستسقط بمجرد ان تأزف ساعة الاستقلال ، هذه الدولة القطرية لم تثبت قدرتها على البقاء وعلى ابقاء حدودها فحسب ، بل راحت تكتسب شرعية وجودية وتاريخية .. » واتخذت « القطر بما هو كذلك اطارا نهائيا للتفكير وللتقيم » .. « فكل دولة قطرية هي بحكم قوة الاشياء مشروع دولة قومية أي دولة الامة ، وهذا ما ينجلي للعيان عندما نرى كل دولة قطرية تجهز نفسها بمنظومة كاملة ومتكاملة من الرموز القومية (علم قومي ونشيد قومي وجيش قومي ... الخ) » . باختصار ان ما يتحقق في الواقع هو « ما نسميه تقومن الدولة

القطرية » . ويضيف الاستاذ طرابيشي بان « الوعي التاريخي هو أول ضحايا التقومن القطري » ، بل « انه يجوز لنا الكلام حتى عن مقصلة قطرية تعمل تقطيعا وفرما في اوصال التاريخ القومي الذي ما فتئت النظرية القومية التقليدية تتغنى بوحدته » .

ويستشهد الاستاذ طرابيشي بالكتاب المدرسي لمادة التاريخ الذي يكوّن الذاكرة التاريخية لآلاف من التلاميذ ، وهي ذاكرة نهائية بالنسبة الى الغالبية الساحقة منهم .. وبدراسته للكتب المدرسية في كل من تونس ولبنان في مختلف المراحل وجدا اختلافا تاما بين ما يدرس هنا وهناك . فكتب التاريخ في تونس « لا تدرس في ثلثيها سوى تاريخ تونس حصرا ، بينما تدرس في ثلثها الباقي تاريخ العالم . اما التاريخ العربي فلا يدرس في كتابة التاريخ لتلاميذ السنة السادسة من التعليم الابتدائي الا في صفحة واحدة يتيمة » . اما السنة الخامسة فلايخصص في كتابها ، للعرب والاسلام سوى اربع صفحات من اصل مئة صفحة .. والعرب في الكتاب يعرفون بانهَم فقط « سكان الجزيرة العربية » وانهم « ينقسمون الى بدو وحضر » .. فالتلميذ ينهي المرحلة الابتدائية دون ان يعلم بوجود شيء اسمه الخلافة الاموية او العباسية او ان يطلع على شيء من تاريخ الحضارة العربية الاسلامية في المشرق أو حتى في مصر » .

اما كتاب التاريخ بالمرحلة الاعدادية في لبنان (٤ اجزاء) فيفرد ثلث صفحاته لتاريخ العرب الاسلامي .. « ولكنه لا يتحدث عن العرب الا ليميز عنهم « اللبنانيين » بوصفهم اصحاب هوية مغايرة » بجانب ان الطالب اللبناني لا يعرف العرب من حيث انهم عرب بل من حيث انهم فلسطينيون وسوريون وعراقيون ... الخ) » .

ويقول الاستاذ جورج طرابيشي بان « الوحدة التي تقدمها لنا كتب التاريخ

المدرسية في المغرب تكاد لا تختلف في اي معلم من معالمها من حيث النزعة القطرية المتقومنة ، عن تلك التي تطالعنا بها كتب التاريخ المدرسية التونسية أو اللبنانية » .. ففي مقدمة واحد من الكتب التي تناولها الاستاذ طرابيشي بالتحليل نجد الكلام عن التجربة في الكتابة التاريخية التربوية التي هي « استجابة لرسالة نبيلة وسعي وراء تحقيق اهداف وطنية تطمح الى تكوين شخصية الانسان المغربي المؤمن بوطنه ، الواعي بتاريخ امته وتراثها وما اسهمت به في بلورة الحضارة الانسانية » .. ويقول الاستاذ طرابيشي بأن هذه المقدمة تعكس ايديولوجية دولة لا ايديولوجية فردية . ويلاحظ بان كلمة المغرب ومشتقاتها هي الكلمة الاكثر تكراراً في كتاب « الدرس التطبيقي » وان عناوين الفصول تتكلم عن المغرب في عصور ما قبل التاريخ ، والفينيقيون بالمغرب وانتشار الديانة الاسلامية بالمغرب ...الخ فالمغرب يتحول الى كيان ثابت عابر للتاريخ .. فهو يحافظ على كيانيته المستقلة حتى في العصور التي كان يؤلف فيها جزءا من امبراطوريات ودول اوسع منه واشمل بكثير .. فالكتاب « لا يدرس تاريخ الخلافة العربية أو العثمانية بما هي كذلك بل يدرس تاريخ هذه الامبراطوريات والدول الكلية جزئيا من خلال علاقتها بذلك الجزء المنزل منزلة الكل الذي هو المغرب » .



فكتاب « الدرس التطبيقي في تاريخ المغرب » مثلا ، الذي يقع في ٢٤٦ صفحة يخصص لتاريخ المغرب في عهد الفتح الاسلامي والدولة الادريسية ٣٤ صفحة فقط .. ويخصص للتاريخ العربي المشترك ١٣ صفحة ليس غير .. بل ويشير الكتاب باعزاز الى ادريس بن عبد الله مؤسس الدولة الادريسية لانه ضمن للمغرب « ان يستقل نهائيا عن تبعيته للحكم المركزي بالمشرق » بل يشار في كتاب آخر الى انه حرر المغرب « من التبعية الاجنبية » .

ويقول الاستاذ طرابيشي ان « عملية تقطير التاريخ أي تأريخه من منظور قطري متقومن ، لا تتخذ شكل تغييب للتاريخ القومي المشترك فحسب ، بل كذلك شكل تبغيض به وتحريض عليه . فالغاية من الحديث عن التاريخ المشترك وهذا

في الصفحات القليلة النادرة التي يدور فيها الحديث عنه ليست ابراز هذا التاريخ بوصفة عامل تضامن وتلاحم ووحدة هوية بل على العكس توظيفه كعامل تمييز ومغايرة وانفصال » .

اذ كانت تلك حال كتابة التاريخ العربي في معظم الاقطار العربية حديثا .. فهي لا تختلف عن الكتابة التي قام بها الكثير من المؤرخين منذ القدم .. ولكن الوعي بكتابة التاريخ القطري وبشكل « نرجسي » أو « شوفيني » هي بالتأكيد اكثر حدة الآن عنها في الماضي وذلك برغم الشعارات وكل ما يحاول البعض الايهام به من ان هناك « امة واحدة » وقومية عربية في طور التحقق في الوقت الذي تظهر فيه الممارسات التمزقات والتجزئة .. فلماذا نمر بتلك المرحلة من التجزئة القطرية ؟

كتابة التاريخ القطري

تتعدد الآراء وتتناقض واحيانا تتفق حول بعض الاسباب .. وليست كتابة التاريخ القطري والنظر للدول العربية الاخرى كاجنبية إلا اعراض لحالة تستشري منذ السبعينات من هذا القرن حسبما يرى د . نديم البيطار الذي يفسر « دور الدولة القطرية في ترسيخ التاريخ القطري » باسباب متعددة ادت الى تحول الارادة التاريخية العربية الواحدة التي سادت في « الخمسينات والستينات » الى موزاييك في الارادات القطرية المتنافرة المتناقضة ، وفي بعض الاحيان المتقاتلة ، وتحول هذا الوطن الى مستنقع قطري يزداد اتساع روائح دوله القطرية وسمومها القاتلة .. » لماذا ؟

يقول د . البيطار لقد « انتقلنا من وضعية تاريخية كانت تعبر عن ذاتها بما يمكن تسميته بآلية وحدوية إلى وضعية تاريخية جديدة اصبحت تتحكم بها الآلية -



النقيض ، أي الالية القطرية » .. ففي ظل تجارب الوحدة التاريخية كان لا بد من توفر « قانون الاقليم ـ القاعدة » أي وجود الاقليم الذي يدعو ويقود الاقاليم الاخرى للعمل الوحدوي وهذا الاقليم القاعدة كان مصر الناصرية الذي بزوال دوره تحولت المعارك عن التحرير والتوحيد وانشغلت الاقطار « باطاراتها ومراجعها القطرية التي تقتل العرب وتبعثر امكاناتهم وطاقاتهم » . وتشتت الارادة التاريخية الواحدة واصبحت « قوالب طائفية ومذهبية قبائلية وعشائرية داخل الدولة القطرية نفسها » .

ويقول د . البيطار ان هذه الالية ـ القطرية تفرز « آلية تاريخية اي تفاعل القطر مع التاريخ في اطار الدولة القطرية بالانطلاق منها والرجوع اليها كضابط وموجه له » . وتلوح لنا تلك الفكرة صائبة تماما اذا اعدنا النظر فيما تكلمنا عنه منذ برهة عن الكتابة التاريخية للاقطار العربية من منظور كل قطر على حدة ، أي يتمحور القطر حول ذاته كمركز يصبح تاريخ الاقطار الاخرى بالنسبة له كعلاقة مع الخارج بل والاجنبي الذي يجرد من صفته العربية وابراز هويته السابقة على العربية وهو ما يشكل تكريس لاقليمية القطر والاقطار الاخرى في الوقت ذاته .

ولان الوسط الاجتماعي التاريخي الذي ينشأ فيه الانسان هو الذي يُشكِّل هويته فإنه بتغير هذا الوسط يحدث طمس للهوية العربية الواحدة واعادة صياغتها وتكوينها في هوية الدولة القطرية . وتصبح ممارسة السلطة في هذا الاطار

الاقليمي بلورة لقيادات قطرية تعجز مع مرور الوقت عن تغيير سياستها الاقليمية من جراء تحولا نفسيا الى جزء لا يتجزأ منها « وتتمركز آنذاك في المصالح الشخصية وتتمحور عليها وعندئذ يشل الانشغال بالمصلحة الشخصية كل اهتمام بمصلحة القطر والدولة القطرية نفسها ، وليس فقط بالاتجاه الوحدوي ودولة الوحدة » .

وعلى هذا النحو يصاحب وجود الدولة القطرية تطور آلية - ايديولوجية وآلية سياسية كضرورة لوجودها كدولة ترتبط بعلاقات مع دول اخرى . وذلك بجانب وجود الالية الاقتصادية التي تعزز وجود الدولة القطرية .. وآلية الارض التي تتفرع من وجود الدولة القطرية وتسهم في تكوين الآلية القطرية العامة كعنصر من العناصر المكونة لها » .

الوعي القومي .. من يخشاه ؟

إذا كان خطر تضخم الدولة القطرية يتجسد كل يوم ويشكل بذلك تناقضا يهدد بانفجار الكل العربي ، وهو عكس ما يطمح اليه الانسان الذي يعيش في هذا الجزء من العالم ، الا يمثل ذلك اشكالية تستدعي النظر العميق في الاسباب الداخلية والخارجية لهذا الواقع ؟ وماذا غير التاريخ يمدنا بمحاولات الاقطار العربية أو على الاقل بعض منها ، في تكوين « كل عربي » يقاوم عدوانية الخارج المهيمن التوسعي ويحاول بلورة وعي قومي يجسده عينيا على ارض الواقع ..

هذا الوعي القومي شهده المجتمع المصري حديثا في التجربة الناصرية التي عمل الاستعمار على ضربها منذ اللحظة الاولى عبر عدوانية غير مباشرة واخرى مباشرة في حروب ومعارك اهمها حرب ١٩٥٦ وحرب ١٩٦٧ .. ولكن في تاريخ مصر ايضا تجربة محمد علي في القرن التاسع عشر وهي تجربة تستحق الوقوف قليلا للتأمل فيها وفيما اعقب اجهاضها من نتائج ما زالت اثارها ماثلة .. ولقد قدم د . احمد السويسي دراسة الى الندوة بعنوان « بداية الوعي القومي في القرن التاسع عشر » حيث تتبع ظهور الوعي « القومي » لدى مفكري القرن التاسع عشر في البلاد العربية .

وقال بان الحملة الفرنسية على مصر في اواخر القرن الثامن عشر كانت « ذات اثر كبير على عملية الوعي القومي في مصر .. وان تأثير الفكر القومي الفرنسي على سياسات محمد علي وابراهيم باشا كان واضحاً .. وتجلى ذلك عمليا

في حملة ابراهيم باشا على سورية بهدف توحيدها مع مصر ، وهو ما تعتبره اول توحيد للبلدين منذ تفكك الدولة الايوبية ووفاة صلاح الدين الايوبي ..

وهذا الحس القومي يظهره د . السويسي ايضا من الموقف الذي اتخذه من

فرنسا برفضه تقديم العون لها في احتلال الجزائر ، بحجة « عدم استطاعته تبرير هذا العمل امام الشعب المصري حين يساهم في احتلال بلد يدين اهله بالاسلام ويتكلمون العربية » وعلى العكس من ذلك فقد قام محمد علي بمساعدة السلطان العثماني على اخضاع اليونان مقابل تنازل السلطان له عن ولاية سورية .

ويقول د . السويسي بانه منذ ذاك حدث تصاعد لظاهرتين : الأولى نزوع مصري نحو سوريا والمشرق العربي .. والثانية : اقرار مبدأ استعماري يقضي بضرورة عزل مصر في الوطن العربي عن سوريا خصوصا نظراً لخطر مصر على المشاريع الاستعمارية باعتبار مصر نواة لقوة عربية ممكنة في المستقبل .

وصاحب الوعي القومي بالذات وعى بحقيقة القومية العربية عند الاخرين مثلما تؤكد ذلك الثورة العرابية حيث « يجري الدعاء لعرابي في مختلف المساجد العربية في المغرب والمشرق » ويعبر الشاعر محمود سامي البارودي واحد قادة الثورة « كان هدفنا منذ بدء حركتنا تحويل مصر إلى جمهورية صغيرة مثل سويسرا ثم تنضم اليها سوريا ويتبعها الحجاز لكن وجدنا بعض العلماء غير مستعدين لذلك لانهم وراء عصرنا » .

ويقول د . السويسي بان « صدمة الحداثة ، بعد الحملة الفرنسية ومحاولة بناء الدولة الحديثة لعبتا دوراً هائلا في نشأة الوعي القومي عند العرب » . وهي بداية بدأت بمقارنة الرجل الشرقي بالاوربي .. وهي صورة اهتم بها رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك .. وكان جوهر المقارنة بين الواقع في الشرق والواقع الاوربي .. أو كما يلخصه سؤال شكيب ارسلان : « لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم » ؟

وكان طبيعيا لظروف تاريخية ان يكون الوعي القومي مندمجا بالصحوة الاسلامية .. وان تكون صدمة الحداثة قاسية اذ كان الغرب هو الاستعمار الذي احتل بلدان المغربي العربي وتحطيم سلطة المهراجات المسلمين بالهند من قبل الاستعمار البريطاني واجهاض دولة مصر محمد علي واحتلال الانجليز للسودان واستيلاء قيصر روسيا على مناطق واسعة من اسيا الوسطى الاسلامية والخوف من تقسيم الامبراطورية العثمانية بين الدول الاوربية .

وكانت اولا فكرة الجامعة الاسلامية التعبير عن « الوعي القومي » للدفاع عن النفس في مواجهة الاستعمار ومحاولة حماية « دولة الخلافة » العثمانية ولكن فكرة الافغاني هذه تطورت على يد عبد الرحمن الكواكبي الحلبي لتصبح « استعادة العرب للدولة والخلافة وانتزاعها من يد الاتراك » .. بل وتطورت فكرة اخرى تقول « نحن غير عثمانيين ، نحن عرب » ولا بد لنا من حليف هو أوربا لبناء دولتنا المستقلة وعبرت هذه الفكرة عن نفسها في الثورة العربية عام ١٩١٦ .

وتبلور التيار « السلفي » على يد الشيخ رشيد رضا الذي كان يرفض الغرب باعتباره خطراً على الاسلام .. والتيار « العلماني » الذي رأى في الغرب النموذج الامثل تبلور لدى بعض مثقفي الشام وفي مصر عند من ساندوا سياسات اللورد كرومر واستهجنوا زعامة مصطفى كامل ومطالبته بالاستقلال ..

من يكتب التاريخ ..، ولماذا نكتبه ؟

وماذا بعد ؟ وماذا بعد كل هذا الكم من القضايا الهامة والجوهرية التي تعرضت لها دراسات الندوة التي عرضنا لمعظمها ؟ كيف نكتب التاريخ ؟ ومن يكتب التاريخ ؟ واي تاريخ نكتب ، تاريخ الاقطار ام التاريخ القومي ؟

يقول البعض بان التاريخ يجب ان يكتبه المؤرخ فقط .. بينما يقول البعض الآخر ان ذلك غير ممكن وانه لا بد للعلوم الاجتماعية الاخرى ان يكون لها دور .. ويقول البعض ان ما يجب ان نكتبه وفورا هو التاريخ القومي .. ويقول غيرهم انه يجب البدء باعادة كتابة التاريخ القطري . فهل هناك حل لمعادلة إما .. أو ؟ هل هناك امكانية للجمع بين هذا وذاك ؟

ربما يستدعي ذلك بعض العلامات التي تزيد من المسألة تعقيدا ووضوحاً ! .. لقد كتب الغربيون تاريخهم وكتبوا ايضا تاريخ بلادنا .. ولكن نحن ايضا كتبنا تاريخ بلادنا . فهل عندما كتبناه حاولنا اظهار ما يمكن ان نسميه « خصوصية » الحركة التاريخية ؟ ام اننا كتبنا التاريخ بنفس التقسيم الذي وضعه الغرب أو رأى به الغرب تاريخه ؟ فكتبنا تاريخ الملوك والاسر الحاكمة ، أو قسمنا مراحل تطور مجتمعاتنا الى مشاعية وعبودية واقطاع ورأسمالية و « اشتراكية » دون ان نكلف انفسنا عناء اختبار هذا التقسيم وصحته ؟

وحينما كتب هذا التاريخ « الفوقي » هل تمت دراسة ما هو اجتماعي واقتصادي وثقافي في المجتمع ام ان التاريخ لا يكتبه إلا المؤرخ .. وعلى الاقتصادي والعالم الاجتماعي ان يتواريا خلف المنحنيات والارقام وحالات « المعونة الاجتماعية » للفقراء والمشاكل الاسرية ؟ الا يوجد هنا بتر « للكل الاجتماعي ـ الاقتصادي ـ السياسي ـ الثقافي » الذي يشكل المجتمع الانساني ؟

إذ ما التاريخ ؟ هل هو دراسة الحوادث والحروب وتوالي الاسر الحاكمة على العروش ؟ ام انه تاريخ الانسان بكل ما يتضمنه معنى الانسان من كلية : الانسان المفكر .. الانسان المنتج الذي يدخل في علاقات متعددة مع غيره من الاشخاص اعضاء المجتمع .. سواء كانت علاقة مُستغَل بمُستغِل أو العكس أو علاقة مواطن مع السلطة ؟

وما السلطة هل هي شيء هلامي ام انها تعبير عن فئة أو شريحة أو طبقة تسيطر على وسائل الانتاج وتحتكر القرار الاقتصادي والسياسي ؟ ولماذا تتخذ السلطة أو الدولة هذا القرار الاقتصادي برفع الضرائب أو زيادة الانتاج أو اتباع هذه السياسة أو تلك داخليا او خارجيا باعلان الحرب أو الدخول في معاهدة سلام ؟

وكيف نفسر ظهور الوعي السياسي الوطني أو القومي أو الوعي الديني أو

وكيف نفسر ظهور الوعي السياسي الوطني او القومي او الوعي الديني او غير ذلك هل هي ظواهر معلقة في الهواء ام ان لها تفسيرات اقتصادية واجتماعية وثقافية ولها ايضا علاقة بالعالم الخارجي ؟ هل يمكن تفسير أي من هذه الظواهر من قبل المؤرخ دون ان يتسلح بفهم كلي لما يحدث على كل صعيد في المجتمع وعلاقته بالخارج ؟

ان التاريخ هو العملية التي تتم دون توقف داخل المجتمع تتفاعل فيها العوامل الداخلية مع العوامل الخارجية ، ويكون تأثير الخارج في الداخل رهن بدرجة التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي لهذا الداخل وما ارتسمه كاستراتيجية لحركته التاريخية المستقبلية ، اذا تم التوافق على ان التاريخ يصنع الانسان .. ولكن الانسان ايضا بامكانه ان يصنع التاريخ ..

ذلك يعني ان التاريخ لا يمكن ان يفهمه المؤرخ وحده .. فالدولة تعني الاستحواذ على الفائض الاقتصادي من المنتجين المباشرين .. وتعني الضرائب وتعبئة الجيوش وشن الحروب والسيطرة على الانسان داخل المجتمع بقوة الاقتصاد والشرطة والسياسة ومساندة البعض ضد البعض الآخر والتحكم في الاعلام والنشر أي في الايديولوجية .. والوعي الوطني أو القومي ليس وحيا منزلا على بعض الافراد ولكنه تعبير أو ترجمة لواقع اجتماعي - سياسي - اقتصادي - ثقافي معقد يرتبط بفهم ووعي طبيعة ما يريده المجتمع أو جزء من افراده في مواجهة تحديات داخلية وخارجية محددة .. فوعي العرب في القرن الثامن عشر مثلا نشأ من القهر العثماني للانسان العربي فكانت حركة علي بك الكبير وفي القرن التاسع عشر عندما تم اعتداء رأس المال الفرنسي على مصر وواجهته القاهرة بثورتين وذلك قبل ان يأتي محمد علي الى مصر .. واضطر بونابرت الى مغادرة البلاد .

ودولة مصر في عهد محمد علي لم يكن مشروعها مجرد حوادث أو حكايات تاريخية وانما كان وعيا استراتيجيا بكل ما يتضمنه المصطلح من معان سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية . فهي دولة يتم اعادة خلقها بتكوين « طبقة اجتماعية » من كبار الملاك يعبئون الفائض الاقتصادي للدولة من المنتجين المباشرين ويقومون بتنفيذ الجزء الهام من السياسة الاقتصادية للدولة لزراعة المحاصيل النقدية (القطن خاصة) على مساحات واسعة من الارض .. وتشرع الدولة القوانين التي تمكن هؤلاء من الارض على حساب الفلاح بالتدريج ليصبح تجريده منها ، مع النصف الثاني من القرن التاسع عشر سهلا .. وهو ما كان يتم اساسا لدخول رأس المال الاجنبي الى مصر منذ عهد سعيد باشا .

وكان وعي الدولة في عصر محمد علي بخطورة تدخل رأس المال الاوربي في شؤون مصر « وعيا وطنيا أو قوميا » .. أي وعيا بما يريد تشيده من دولة تتمتع باستقلال نسبي في وسط ومع العالم الرأسمالي .. ويتم ضربه في عهود من خلفه في الحكم لفقدان هذا الوعي ..

ذلك المثل المبتشر يُظهر من بين ما يظهر استحالة الفهم التاريخي المجرد لمجموعة من التغيرات دون اخذ الظاهرة في كليتها وشمولها .. بل يمكن القول دون ان نخطىء كثيراً انه حتى عندما نعيد كتابة التاريخ القطري كحلقة اولى من اعادة كتابة التاريخ القومي فإننا بالضرورة من خلال هذه النظرة الكلية نكتب ولو جزئياً بعضاً من التاريخ القومي .. فالتاريخ القطري ملتحم بتاريخ الاقطار الاخرى ، على الاقل بما يمكن ان نسميه التاريخ « المناطقي » او تاريخ المنطقة .. فتاريخ مصر في القرن التاسع عشر مثلا ، يرتبط بتاريخ الشام وبالسودان وبجزء لا بأس به من تاريخ البلدان الافريقية .. بل وبتاريخ شبه الجزيرة العربية .. ويكفي متابعة حركات تجارة القوافل التي كانت تخترق افريقيا متجهة نحو اسيا لنكتشف الروابط الوثيقة في هذه الحركة التي تصعد حتى حوض البحر المتوسط ..

فلما لا يكون هذا المنهج الشمولي الذي يدقق فيما يحدث بالداخل في علاقته بالخارج هو الاسلوب الذي نكتب به تاريخنا ؟ . إذ به وحده تبتعد عن الاذهان فكرة ان هناك قالب ايديولوجي « قومي » يريد ان يجبر حركة التاريخ على ان تتقلص أو ان تتمدد حتى تلائم القالب وتدخله .. فالهدف النهائي هو ان يكتب التاريخ بشكل صحيح .. بمعنى ان نرى فيه من يستغل من ، ومن عليه قيادة حركة تاريخ الوطني العربي من اجل اخراجه من التبعية و التخلف ، من اجل تكوين وطن عربي جديد يكون فيه الانسان حراً ينتج لاشباع حاجاته الاجتماعية الاساسية أولا .. فيجد المسكن الملائم والتعليم المناسب والرعاية الصحية الانسانية والدخل الاقتصادي الذي يكفل له ولاسرته الحياة الكريمة لكي تتجدد قوة العمل لا ان تهرب إلى الخارج فتضعف أوطاننا وتقوي من يهمهم ازدياد ضعفنا ..

اذ ما الغاية من فهم الماضي والحاضر ان لم تكن اكتشاف القوانين وراء حركتهما للسيطرة والتحكم في المستقبل والمساهمة في صنعه . فالتاريخ ليس نزهة عقلية يكتب لذاته ولكنه تكثيف الوعي الانساني بخبرات السلف من البشر الذين شاركوا في صنع مجتمعاتهم أو أولئك الذين فشلوا في انجاز هذا الدور فاصبحوا ضحايا التاريخ . ويصبح هذا التراكم الكمي والكيفي لوعي الانسان

التاريخي بمثابة لاعب الشطرنج الذي يرى جيداً القطع التي يحركها هو وتلك التي يحركها منافسه ، فيحرك ما لديه بحسب استراتيجيته غير غافل ولو لبرهة عن تحركات خصمه .. والذي له الفوز ليس من يقفز هنا وهناك دون تحسب وانما الذي يتحرك بروية ، ويخسر ربما بعض قطع اكثر من منافسه ولكن فهمه لقوانين اللعبة يمكنه من تصويب خطوات اكثر توفيقا نحو نصر ربما يتم ببطء شديد ولكنه يأتي .. فالتاريخ ليس انجاز يوم او سنة او عقد من الزمان وانما هو تراكمات اجيال تلو الاجيال والخطوات الموفقة التي تقطع ، وتصويب الخاطىء منها في الطريق ، يضمن امكانية ان يبلغ المجتمع الانساني صنع مصيره وتحرير الانسان من الحاجة والقهر .. ويصبح الانسان صانع التاريخ ... وغايته .. ■

موجز حوار أجريته مع الأستاذ كامل زهيري حول الندوة



كامل الزهيري:

التأريخ أخطر من أن يترك للمؤرخين وحدهم

تعتبر الندوة ايجابية كفكرة . فأي لقاء يجمع مثقفي المشرق العربي والمغرب العربي في اي بقعة من الوطن العربي هام جدا لانه من خلال هذه اللقاءات نعيد لحم الشقاق أو الشرخ الموجود حتى على صعيد الدراسات النظرية بين المشرق والمغرب .

وهذا ليس قديما . فاذكر ان الشيخ محمد عبده ذهب عام ١٩٠٣ الى الجزائر .. وكتب الشاعر شوقي عن طرابلس .. فهذا التواصل الذي كان موجودا في بداية العشرينات بين المثقفين العرب انقطع لاسباب كثيرة .. فاصبحت الجرائد ممنوعة .. والنزعة القطرية اقوى ، واصبحنا نقرأ عن الكُتاب ولا نقرأ لهم .. فالكِتاب نادراً ما يخرج من المغرب إلى المشرق أو العكس ، في حين ان ذلك كان ممكنا في السابق .. فمثل هذه الندوات ، على الاقل ، تتيح الفرصة للقاء وتبادل معلومات وافكار الى غير ذلك .

اما عن الندوة ذاتها والموضوع الذي تطرحه عن كتابة التاريخ أو اعادة كتابته ، فاني انظر إليه من ثلاث نقاط وهي : التوثيق والدراسات والتدريس .. ونحن نعاني في الثلاثة محاور . فمن ناحية التوثيق ، الغرب يعرف عنا اكثر مما نعرف عن انفسنا .. اما باهتمامه المبكر بالزيارات والتحليلات والكتب والدراسات او بحصولهم على المخطوطات وحرصهم على ان تكون مصادر التاريخ متوفرة لديهم . ونحن غالبا ما نهمل هذا الجانب ، فاحيانا لا نكتب التاريخ إلا بعد فترة أو نكتبه من وجهة نظر متحيزة أو بناء على طلب السلطة أو هيئة إلى آخره . وبالتالي تضيع التفاصيل الهامة ونبض الواقع التاريخي .. ولذا فالتوثيق مسألة هامة جداً ، ومن هنا كان ما اقترحناه على الندوة تعميق التوثيق وتقويته سواء تعلق الامر بما كتب أو بما سيكتب في التاريخ العربي اقليميا وقوميا .

اما فيما يتعلق بموضوع الابحاث والدراسات فأرى انه من الضروري تشجيع المدارس التاريخية المختلفة ، لاني أومن ، كما قلت بالندوة ، بضرورة ان توجد علوم مساعدة للتاريخ . والتاريخ اخطر من ان يترك للمؤرخين ، كما ان الامور العسكرية اخطر من ان تترك للعسكريين او الاقتصاد للاقتصاديين . فلا بد من تضافر المناهج والعلوم الاخرى . فتعدد المناهج هام جداً .. فلا بد ان يوجد الادب والجغرافيا والعلوم الاجتماعية والتحليل النفسي والتراث .. الخ .. ومن هنا اعيد اني اومن بتعدد المناهج مع وجود منهج تاريخي اصيل ، وان يقوم بكتابة التاريخ المتخصص الذي يتمتع بدرجة عالية من الكفاءة العلمية والنقدية .

ولكن في هذه المرحلة لا بأس من تشجيع الكتابات التاريخية الادبية والانطباعات ونشر المذكرات .. وغير ذلك ، فمن السابق لاوانه ان نتصور مولد منهج قومي لكتابة التاريخ لانه لا يولد بين يوم وليلة ولكن يولد في اثناء العمل .. والمهم ان نحس بالحاجة الى نظرة قومية لكتابة التاريخ . وفي ظني ان النظرة القومية ليست جغرافية فقط ، اي ان ننظر للعالم العربي من المحيط إلى الخليج من الناحية الجغرافية ، ولكن هي نظرة شاملة كلية تعي بان هناك عناصر تشابه في الظروف ، وخاصة في العصر الحديث . فالاستعمار جاء من اوربا وحاول غزو الحضارة العربية والتأثير فيها ، وبالتالي فهم يتسلحون بالنظرة الشاملة .. ونحن بدورنا علينا ان نتسلح بنفس النظرة الشاملة .

ومن المهم في مرحلة البحث ان يتم جمع للدراسات التي كتبت من طرف المستشرقين والنظر اليها نظرة نقدية ، أي نقدر الجهد ونستفيد منه ونوظفه مع النظرة النقدية التي تخلص الاستشراق من الاهداف التي كانت وراء البحث العلمي .

والمحور الثالث هو تدريس التاريخ . والندوة فتحت نافذة على هذا الموضوع عن طرح موضوع دراسة مقارنة بين مناهج تدريس التاريخ في البلاد العربية ، فيمكن ان نستكمل ذلك بدراسة التاريخ في فلسطين المحتلة .. ويمكن ان ندرس تأثير التطبيع والعلاقات مع اسرائيل على تدريس التاريخ للتلاميذ والطلبة في مصر .

وموضوع تدريس التاريخ مهم جدا ، لان القضية ليست ان نقوم بعمل موسوعة علمية تاريخية عربية قومية تحفظ في المكتبات ، فكتابة التاريخ لها تاريخ وحركة وهي تنشأ وتوجد نتيجة جهد العلماء والباحثين في هذا الميدان . فلذلك فمن المهم ان نعرف ماذا نعطي ابنائنا من معلومات تاريخية وكيف نعطيها .. وكيف نعدهم للقرن الواحد والعشرين ، فدراسة التاريخ هي كشف عن الذات أو الهوية ..

وفي ظني ان الذين كتبوا عن الروح الالمانية أو الروح الفرنسية في بداية عصر القوميات قد يكونوا شعراء أو ادباء أو مؤرخين أو ساسة .. فالمهم ان يكون تدريس التاريخ له هذا الشمول ولا يقتصر على تاريخ سلطة أو على تاريخ الاحداث ، ولكن على الحركات الاجتماعية والحركات الادبية والفنية . بل اصل الى ضرورة ان يدرس المعمار العربي والفن التشكيلي العربي وغير ذلك .. وكل هذه مهام كبيرة جداً من الصعب ان نتصور انه من الممكن ان تتحقق فوراً ، وانما مجرد طرح هذه الافكار وغيرها بالمناهج المتعددة من الاقطار المختلفة يقرب مثل هذا اللقاء يقرب ويصحح بعض الاخطاء الموجودة ويضيف بعض المعلومات الجديدة ، وقد ينتهي بان الوصول الى رؤية قومية لا يمكن ان يفرض فرضا ميكانيكيا من الخارج كشعار .. فهي تحتاج الى مفكرين كبار من المؤرخين او ما اسميهم « مؤرخي اعالي البحار » لانها اقرب الى فلسفة التاريخ واستكشاف قوانين الحركة في التاريخ العربي ، وقوانين التحدي والصدام اذا استخدمنا كلام المؤرخ ارنولد توينبي .

بمعنى آخر فهو جهد يجب ان يقوم به شيوخ التاريخ الذين يكتبون محصلة ابحاثهم الطويلة وجهدهم . وهذا يتم في ظل ظروف لا يكون فيها ازعاج للباحثين ودون فرض ، لانني اعتقد انه من المهم الا نتشنج في رفع شعار « رؤية قومية لكتابة التاريخ » وان يتم ذلك في اطار حرية البحث العلمي .

واما فيما يتعلق بالابحاث التي قدمت الى الندوة فكان فيها الجيد كالعادة ، بعضها يكمل البعض الآخر أو يتناقض معه . فيها نقص نظراً لان مجلس الثقافة ما زال في بداية نشاطه .. فكان من الضروري مثلا ان تصل الاوراق الى المشاركين بحيث يجد الذين سيعقبون الوقت الكافي للرجوع الى مراجعهم ووثائقهم . وايضا مثل هذا العدد الكبير من المشاركين لا يسمح بالمناقشة المتأنية .. وقد كان ممكنا ان يعقب الندوة « مجموعات عمل » مكون كل منها من ثلاثة مؤرخين مثلا تناقش كل مجموعة موضوعا معينا ، مثل الاستشراق أو تعليم التاريخ في البلاد العربية .. الخ ولكن المشكلة في الندوات التي تجمع اكثر من عشرة باحثين انها تتسم بالسرعة والنقاش التلقائي .

موجز حوار أجريته مع الأستاذ العربي الزبيري حول الندوة



العربي الزبيري:
نحو اعادة كتابة تاريخ الثورة الجزائرية

ان لقاءً واحدا يفتح الطريق الصحيح ، لكنه لا يُمكّن من تحقيق النتائج المتوخاة .. فنحن في الجزائر نعيش مرحلة ندعوها « إعادة كتابة تاريخ الثورة » .. لماذا ؟ لاننا بعد مضي خمسة وعشرين سنة على استرجاعنا للاستقلال الوطني ، وجدنا اننا يجب ان نولي عناية خاصة لهذه الثورة التي نعتبرها ، بكل تواضع ، من اعظم الثورات التي عرفها العالم المعاصر ونؤمن انها ليست ثورة الشعب الجزائري وحده ولكنها ثورة الامة العربية باجمعها ..

ومع الاسف وجدنا ان الاهتمام بها لم يكن إلا من جانب المؤرخين والدارسين والباحثين الاجانب . وجاءت دراساتهم لهذه الثورة ناقصة . وقد اكتشفنا ذلك ، فاصبحنا ندعو إلى اعادة كتابة التاريخ ..

نحن نرى انه لا يمكن ان نفصل اعادة كتابة التاريخ عن كتابة التاريخ .. اما اعادة كتابة التاريخ فيجب ان تكون بالنسبة للتاريخ القطري ، لاننا اذا لم نعد كتابة تاريخ مختلف الاقطار العربية لا يمكن ان نصل إلى كتابة التاريخ القومي . لماذا ؟ ..

لاننا تعرضنا كاقطار لانواع مختلفة من الاستعمار ، وعلى الاقل بالنسبة لاقطار المغرب العربي فإن المستعمر قد شوه وزيف وحرف تاريخها عمداً ..

لقد كان ابناء شمال افريقيا يتعلمون في المدارس ان اجدادنا هم « الغال » وليسوا العرب .. كنا نتعلم في المدارس ان الروابط التي تربط شمال افريقيا بفرنسا هي روابط حضارية وثقافية ومصالح اجتماعية واقتصادية ولا يمكن ان نجدها عندما نتجه إلى المشرق .. أي درسنا تاريخا مزيفا عمداً وذلك حتى فترة ما يسمى باسترجاع الاستقلالات .. وعندما تدرس هذه المواد في المدارس فلا بد ان تنطلق من مصادر .. والمصادر هي اساس كتابة التاريخ . والاستعمار ليس غبياً فعندما خطط وبرمج فإنه انطلق من مادة ، وهي المادة التي عندما نرجع اليها نجدها مطابقة لما تعلمناه .

لذلك فنحن ننادي اولا وقبل كل شيء باعادة كتابة تاريخنا القطري .. وعندما نعيد هذه الكتابة باقلام وطنية وبوعي وطني وفكر مُخلّص من كافة انواع التبعية ، وعندما تتوفر الشروط ا لموضوعية لكتابة التاريخ القومي . بل اقول اكثر من هذا ، عندها سنكتب التاريخ القومي دون ان نشعر ..

هناك واقع وهناك حلول . نحن نحلم بكتابة التاريخ القومي العربي .. كما اننا نحلم باقامة الدولة العربية الواحدة .. نحلم بازالة الحدود التي تفصل بعضنا عن بعض .. نحلم بتكثيف الاتصالات فيما بيننا .. نحلم بان نضع وسائل النقل مكثفة حتى ننتقل من قطر لآخر وحتى لا نصل إلى مثل هذه الندوات متخلفين .. نحلم باشياء كثيرة ولكن هناك واقع لا يمكن ان نقفزه لاننا لو قفزنا على هذا الواقع ربما نجد حلولا مؤقتة ولكن نبقى دائما مقيدين بالمشاكل التي تعيدنا الى هذا الواقع المؤلم المأساوي والاليم ..

ولنا امثلة كثيرة حول ما نسميه بالتزييف ، وإذا توقفت فقط عند تاريخ الجزائر فهناك مؤلفات كثيرة كتبها لا اقول مؤلفون جزائريون ، وانما على الاقل مثقفون جزائريون في عصور مختلفة ، وانا استحي ان اعدد المراحل التاريخية بالطريقة التي فرضت علينا : التاريخ القديم .. التاريخ الاسلامي .. التاريخ الحديث ، كأنما التاريخ الحديث ليس التاريخ الاسلامي . لكن اقول ان الحقب المختلفة رأت مثقفين جزائريين وضعوا كتبا تعالج ميادين مختلفة وخاصة التاريخ الجزائري .. ووضعوها ، طبعا باللغة العربية ، ولكننا لم نجدها اليوم ولا يمكن ان نجدها في مكان آخر إلا في صيغة ترجمة .. فلماذا اختفت الاصول العربية وبقيت الترجمة الاجنبية ؟ ..

ليس هذا لخدمة المثقف الاوربي ، وليس هذا لحرمان المثقف العربي .. لا .. اختفت هذه الاصول لان المستعمر افرغها من محتواها الثوري الحقيقي الذي يسمح لنا ان نعود إلى اصالتنا وان نكون النواة التي تستطيع ان تشكل الطاقة الثورية التي تدعو إلى الانتفاض أو التي تدعو اعادة الكيان الحقيقي الذي يذهب إلى ابعد مما يتصوره او يتخيله المستعمر والامثلة كثيرة ولا بد انكم تعرفون النقاط التي وضعها حمدان موشى حول التعسفات التي قام بها الاستعمار في الجزائر في السنتين الاولى والثانية من سنوات الغزو الاستعماري وهذا الكتاب وضعه باللغة العربية وقدمه لملك فرنسا وإلى لجنة شكلت في ذلك الوقت كانت تسمى « اللجنة الافريقية » .. ولكننا وجدنا هذا النص في ترجمات مختلفة .. وكل الترجمات متباينة فيما بينها ، لان كل واحدة تهدف لتحقيق غرض معين ..

ثم نعود الى اليوم الى ثورة ١٩٥٤ .. فهناك مئات الكتب بدون مبالغة وضعت حول هذه الثورة بالانجليزية ، بالفرنسية ، بالايطالية والروسية .. ولغات اخرى .. وحتى الان ما زلنا لا نجد دراسة واحدة يمكن ان نقول انها تاريخ الثورة الجزائرية .. لماذا ؟ لان الذين كتبوا حتى الآن هم من الاجانب .. وقد كتبوا من زوايا مختلفة وبدوافع مختلفة ولاغراض مختلفة .. فنجد دراسة للناحية العسكرية .. واخرى للجوانب السياسية ولكننا لا نجد دراسة معمقة لحقيقة هذه الثورة التي يجب على كل مثقف عربي يهتم بها ان يدرسها من جميع النواحي ، وان يظهر سلبياتها وايجابياتها .

نحن نبقى عند قولنا ان كتابة التاريخ القومي أو كتابة التاريخ العربي الحقيقي تمر حتما عن طريق اعادة كتابة التاريخ القطري . واذا لم نتمكن من ذلك فإننا لن نصل إلى نتيجة .. لكن كيف نعيد كتابة التاريخ القطري ؟ هنا ايضا مشكلة وهذه الندوة يمكن ان تساهم في حلها .. وقد استمعنا في « التوصيات » ان الندوة توصي بانشاء لجنة لوضع منهج لاعادة كتابة التاريخ وللمتابعة ونتمنى ان ترى هذه اللجنة النور .. ولكن لا ينبغي ان نبقى في اطار هذه اللجنة فقط ، لان الذين يعيدون كتابة التاريخ أو الذين يكتبون التاريخ يوجدون في الجامعات سواء كطلبة أو اساتذة .. والجامعات لها برامجها لذلك فمثل هذه اللجنة التي ستتوصل الى هذه المنهجية يجب ان تكون لها اتصالات بالجهات المقررة لكتابة واعادة كتابة التاريخ ، أي هذه اللجنة ، من خلال المجلس القومي للثقافة العربية ، يجب ان تجد الطريق لتصل الى مختلف الجامعات العربية وإلى مختلف الوزارات المكلفة بالتاريخ في الوطن العربي ، وذلك لان كتابة التاريخ مكملة لاعادة كتابة التاريخ في الوطن العربي .

واسمحوا لي ان اضيف بان معظم البحوث التي اطلعت عليها تركز على المفهومية تاركة المنهجية جانبا .. ونحن اذا عدنا إلى المفهومية فإننا نرى ان هناك كثير يجب ان نعيد فيها النظر .. واشياء كثيرة يجب ان نتفق عليها وان نضعها امام البحث . فنحن في حاجة إلى المنهجية ولسنا في حاجة الى المفهومية .

العربي الزبيري
رئيس اتحاد الكتاب الجزائريين

حمل المقال من أسفل



نحو رؤية قومية

لكتابة التاريخ
العربي .. مصطفى
نور الدين

أي رسالة أو تعليق؟